الرسمية، وبين المواقف الفعلية للدول العربية على أرض المعركة.

الفلسطينيون في معارك ما قبل النكبة

قبل أن تدخل الجيوش العربية النظامية إلى فلسطين في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، كانت الجماهير الفلسطينية قد بادرت عفوياً إلى خوض معركتها ضد قرار التقسيم[٦٠]. ففي اليوم التالي لصدور القرار المذكور، كانت الصدامات بين الفلسطينيين والعصابات المسلحة التابعة للتنظيمات الصهيونية قد بدأت في مدينة القدس، وامتدت بعد ذلك إلى المدن والقرى الفلسطينية الأخرى[٦١].

ولم تكن الساحة الوطنية الفلسطينية تستند إلى وجود قوي أو قوة سياسية منظمة تمتلك إطاراً تنظيمياً متماسكاً يُؤهلها لاستيعاب طاقات الجماهير الفلسطينية وتوجيه اندفاعها الوطني، وتعبئتها في معركة قد تطول. وكانت القيادات الفلسطينية الوطنية البارزة على الأغلب، إما من المتنفذين الأفندية، أسياد الأرض الكبار ورجال الدين المسلمين، أو من قطاع البرجوازية التجارية في المدن. وكانت هناك عناصر معدودة من فئة المثقفين الوطنيين الذين تبينوا العجز في البنية الاجتماعية القائمة ووعوا مخاطرها[٦٢] دون أن يكونوا قادرين على وضع البديل الصحيح. ولم يشكل هؤلاء ثقلاً ملموساً في الأوساط الشعبية. وقد نشطوا في أحيان كثيرة أما كأفراد، أو في أطر سياسية لم ترق إلى مستوى التنظيم بمفهومه العلمي. وفي الوقت الذي كانت فيه الظروف تتطلب جسماً فلسطينياً موحداً كانت الساحة الفلسطينية تعج بالتنظيمات والتجمعات السياسية[٦٣] التي تعمل منفردة وتنشط في أحسن الأحوال موسمياً وفي الأوساط العليا، على الأغلب، طارحة الجماهير الشعبية كَمّاً مهملاً أو احتياطياً تكتيكياً عند الحاجة للعنف. أما العناصر التقليدية من القيادة الفلسطينية، فكانت تتصف بفردية القرار ومحاولة احتواء القوى الأخرى التي لا تخضع لقيادتها المباشرة[٦٤]. وقد تمكن بعض هذه القيادات، مستغلاً نفوذه الديني ووجاهته الاجتماعية، من تحريك بعض القطاعات الجماهيرية من الريفيين وفقراء المدن. وفي صلاتها العربية، ظلت هذه القيادات على هامش السياسات الرسمية للدول العربية، لم تخرج عنها في معظم الأحوال، فزرعت بذلك بذرة الثقة بامكانيات الأنظمة لا بطاقات الجماهير الذاتية[٦٥] كما جنحت فئة المتنفذين تاريخياً في حوارها مع سلطات الانتداب البريطاني إلى المهادنة واللين، وهي التي استمدت نفوذها في أوساط الفلسطينيين، بسبب فقدانهم إلى الدولة والمؤسسة التي تمثلهم في مواجهة سطوة الانتداب الأجنبي، فقامت الزعامات المحلية بمقام الدولة في حال غيابها أو فقدانها. وعند إحساسها بالعجز، لجأت هذه القيادات إلى وسيلة الاتصال بالدول العربية التي كانت بمجملها تدور في فلك السياسة البريطانية. وكان الشعب الفلسطيني، صاحب القضية، الغائب الأكبر عن ساحة تحالفات هؤلاء الذين لم يهملوا دور الشعب في الكفاح فحسب، بل ساهموا بسبب صراعهم على الزعامة في شق الصفوف[٦٦]، وخلق جو من الاضطراب والفوضى بسبب الأوامر المتعارضة والمنفصلة في كثير من الأحيان[٦٧]. وقد كرس هذا النهج عشائرية الولاء وغلبته على الانتماء للوطن باعتباره الانتماء القومي في مفهومه الأشمل. وكان للتخلف السائد وانعدام الوعي، بهذه المخاطر، الأثر الكبير في قبول